٥٩ الإمام البوصيرى صاحب قصيدة نهج البردة

لا يذكر اسم الإمام البوصيرى إلا وتذكر معه قصيدته الخالدة فى مدح الرسول ﷺ المعروفة بنَهج البُرَدَة والتى مطلعها:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دمعاً جَرَى من مُقْلَةٍ بِدَمِ
أمْ هَبَّتِ الريحُ من تلقاء كاظِمَةٍ ... وأَوْمَضَ البرقُ فى الظَّلماءِ من إِضَمِ

وسُميت هذه القصيدة «بنهج البردة» لأنها كانت على نهج قصيدة البردة التى أنشدها كعب بن زهير بن أبى سلمى فى مدح الرسول ﷺ والتى مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يعد مكبول

ومنها:

وقد نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

وأما لماذا سميت قصيدة كعب بن زهير بالبردة، وقصائد الشعراء الذين جاءوا بعده ومدحوا النبى بنهج البردة، فلذلك سبب، هو أن كعب بن زهير بن أبى سلمى، وقد كان شاعراً مخضْرماً، أدرك الجاهلية والإسلام. هجا الرسول فى واحدة من قصائده فأتىَ تائباً بعد فتح مكة، ودخول الناس فى دين الله أفواجا.. وجاء الرسول منشداً قصيدته المشهورة. فخلع عليه الرسول ﷺ بردته، وأعطاه إياها.. استحساناً لشعره واظهاراً لعفوه، ومن هنا سميت قصيدته «البردة».

ومن عجيب الأمور أن بردة الرسول كرداء توارثها أبناء كعب بن زهير واحتفظوا بهاطوال عصر الخلفاء الراشدين، إلى أن جاء معاوية بن سفيان فاشتراها من ورثة

كعب بن زهير بعشرين ألف درهم ليلبسها بعد أن تولى الخلافة. وصارت هذه البردة إرثاً لخلفاء بنى أمية، فكانوا يلبسونها فى المناسبات والأعياد الإسلامية تبُّركاً بصاحبها الرسول ﷺ. كما توارث الشعراء اسمها بقصائدهم فى مدح الرسول مع تحريف بسيط هو «نهج البردة» أى على غرار البردة وكان من بينهم الإمام البوصيرى.

ومن هنا ندرك أن البوصيرى يجمع إلى تفقهه فى الدين البلاغة فى القول، فقد كان شاعراً من الشعراء المجيدين والدليل قصيدته نهج البردة وغيرها من قصائد. ولعل هذا يدعونا إلى التعرف عليه أكثر وأكثر..

هو الشيخ الصالح شرف الدين أبو عبد الله بن سعيد الصنهاجى المعروف بالبوصيرى، نسبة إلى قرية «بوصير» وهى موطن أمه وأحياناً كان يُلقب بالدُلاصى، نسبة إلى قرية «دلاص» موطن أبيه.

غير أن نسبه البوصيرى ينتهى إلى أصول مغربية، حيث كان أبوه من أحفاد الصنهاجى بالمغرب العربى، حيث يذكر على مبارك فى خططه التوفيقية بأنه من المرجح أن يكون أحد أجداده لأبيه قد وفد إلى مصر مع بربر المغاربة الذين أشار إليهم ابن حوقل فى كتاباته.

ويذكر السيوطى فى كتابه «حُسن المحاضرة» أن الإمام شرف الدين أبا عبد الله الصنهاجى المعروف بالبوصيرى مغربى الأصل بوصيرى المنشأ، وأنه ولد سنة ٦٠٨ هـ، وتوفى سنة ٦٩٦ هـ وكان كما يقول الشهاب بن حجر: «من عجائب الله فى النظم والنثر، وإن لم يكن له إلا قصيدته المشهورة نهج البردة لكفاه ذلك فخراً بين الشعراء. لقد ازدادت شهرة هذه القصيدة إلى درجة أن الناس كانوا يتدارسونها فى البيوت والمساجد، ودور العلم التى كانت موجودة وقتئذ.

ولقد بدأ البوصيرى حياته فى مهنة الكتابة على الجبايات أو الضرائب، إلا أن عدم أمانة المشتغلين معه جعلته يزهد فى الوظائف، بل ويزهد فى مباهج الحياة ومتعها، حيث رآها كلها إلى زوال ولا يبقى إلا العمل الصالح، فينصرف إلى حياة التصوف، والانقطاع للعبادة، وقد نظم فى ذلك شعراً عن موظفى عصره قال فيه:

نُقَدْتُ طوائف المستخدمينا فلم أَرَ فِيهِمُو حُرًا أمينا

ولعل ما وصل إليه من تفكير فى الحياة وجدواها، هو الذى جعله يفر إلى الإسكندرية، ويلتقى بزعيم الصوفية هناك أبى العباس المرسى، تلميذ الإمام أبى الحسن الشاذلى وخليفته فى الطريقة الشاذلية. ويصحبه البوصيرى، ويتتلمذ عليه، ويكون من مريديه وأتباعه فى التصوف.

وهذا ما يشير إليه على مبارك فى خططه التوفيقية حيث يقول: «كان البوصيرى وابن عطاء الله السكندرى تلميذين لأبى العباس المرسى. فخلع على البوصيرى لسان الشعر فكان بارعاً فيه، وخلع على ابن عطاء الله السكندرى لسان النثر فكان مجيداً فيه. وقد لازم البوصيرى أستاذه أبا العباس المرسى، وأخذ عنه العلم والفضل، ثم نهج بعد ذلك فى شعره منهجاً متميزاً فى التصوف حيث مدح النبى فى نهج البردة وغيرها من قصائد أهمها الهمزية فى المدائح النبوية التى استهلها بقوله:

كيف ترقَى فى رُقِيِّكَ الأنبياءُ يـا سمـاءً ما جاوزَتْهَا سماءُ

وأخلص فى الحب لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ.

ويقال إن السبب فى نظم الإمام البوصيرى لقصيدته البردة. هو إصابته بفالج ألمَّ به، وقد أعيا هذا الفالج أطباء عصره فلم يستطيعوا علاجه. ففكر البوصيرى فى نظم قصيدة يستشفع بها لدى الله ورسوله، وكانت هى قصيدة نهج البردة، التى ما أن أتمها حتى برئ تماماً من مرضه.

ولذلك فإن عدداً من النقاد والمؤرخين يرون أن هذه القصيدة إذا لم يكن عنوانها نهج البردة. فما أحراها أن يكون عنواها «البرأة» لأن ناظمها البوصيرى بَرِئَ من مرضه المسمى بالفالج.

ولعل النقاد والمؤرخين يقصدون بذلك أولا انتساب القصيدة إلى سبب نظمها وهو الشفاعة إلى الله برسوله، وثانياً لتمييزها عن قصيدة كعب بن زهير بن أبى سلمى، فتكون بعنوان غير البردة. وهو «البرأة». مع أن البوصيرى اختار لها عنواناً قبل نهج البردة هو «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية» على طريقة أهل

زمانه فى الكتابة، إلا أن نهج البردة كان من الشهرة بحيث بقى فى أذهان الناس، إلى درجة أن صاحب القصيدة البوصيرى وقُرَّاءَها قد نسوا هذا العنوان واستقر فى الأذهان نهج البردة.

والجدير بالذكر أن النقاد والمؤرخين قد أفاضوا فى الحديث عن قصيدة الإمام البوصيرى «نهج البردة» متتبعين مراحلها منذ كانت مجرد خاطرة فى وجدان صاحبها البوصيرى يريد أن يظهرها للوجود. إلى أن أصبحت عملاً إبداعياً متكاملا، وضمن هذه المراحل ما يقال: إن البوصيرى ظل ينشد متفرقات من أبياتها. حتى إذا أتى إلى الشطرة الأولى من بيت: «فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ» فتوقف ولم يستطع أن يستكمله، وظل على هذه الحالة أياماً عديدة إلى أن رأى - فيما يرى النائم - النبى ﷺ يطلب منه قراءة شطرة هذا البيت الذى توقف عندها فقرأها وهنا أتمها بعد أن استيقظ قائلا «وأنه خير خَلْقِ الله كُلِّهِم».

فأصبح البيت:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خَلْقِ الله كلهم

وتكتمل القصيدة فى ١٨٠ بيتاً، ولتكون أعظم قصائده، وليؤلف على وزنها الشعراء قصائدهم فى مدح النبى وفى مقدمتهم فى العصر الحديث أمير الشعراء أحمد شوقى.

وهكذا عاش البوصيرى أديباً صوفياً. حتى توفى عام ٦٩٦ هـ بالإسكندرية، ودفن على أرضها وأقيم له مسجداً بإسمه هناك بجوار أستاذه أبى العباس المرسى.

* * *